

المصاحف

١٣١٥

﴿ يوم السبت ٣ محرم سنة ١٣١٧ الموافق ١٣ مايو - ايار - سنة ١٨٩٩ ﴾

﴿ الاعتماد على النفس ﴾

(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم)

« قتل الانسان ما اكفره ، يجني على نفسه ويلحق بها البلاء بسميه
ويهمل أسباب سعادته ويتكبر طرق رفاخته ثم يتجرم على الناس او يتدفع
ويتجنى على الطبيعة زاعماً انه مأمني بالنوائب ومنع من الرغائب الامن
نكد الزمان وتقصير الاخوان فان ضاقت به سبل الاعذار انجى باللوم
على المقدر وقال مائتفح حيلة البشر اذا كان خصيمهم القضاء والقدر
وغدا يعتب القضاء ولاعد رلماص فيما يسوق القضاء
كل ملي يعتقد ان الله تعالى خلق الخلق بارادته واختياره على حسب
ما سبق في علمه ومن خلق نوع الانسان الذي يعمل بارادة واختيار ينشان
عن العلم بوجوده المصالح والمنافع والفساد والمضار وهذا العلم منه ما يكون
له بالضرورة ومنه ما يكتسبه اكتساباً من طرق واضحة تؤدي الى غاياتها
اذا لم ينحرف السالك عن جادتها - فهل الاعتقاد بعلم الله وارادته يكون

عذرا للانسان اذا زاغ عن الصراط المستقيم فوقع في الرجز الاليم ؟ وهل اذا فرض ان العالم وجد بالاتفاق من غير خالق او ان خالقه تعالى وتقدس جاهل أو مكره (سبجانه سبجانه) يزول عذرا للانسان ؟ كلا ان هذا هذيان لا يقول به عاقل ولكن ما بال المسلمين يحتجون بالقضاء والقدر حتى صاروا سخريه عند سائر البشر . واعتقدت الامم المتمدنة ان هذا الاعتقاد سدينهم وبين الارتقاء . وان ساد به من قبل آباؤهم القدماء . بل وان كانوا يعتقدون مهم ان الله لم يخلق شيئا الا بارادته . وان جميع ما وجد في الكون موافق لما سبق في علمه أو مشيئته . ولا يخرج معنى القضاء والقدر عند أئمة المسلمين عن هذا الذي قلناه ولم يقل احد منهم بانه يجوز الاحتجاج بالقضاء والقدر على تقصير الانسان في علمه واخفاقه في سعيه بل صرحوا بالمنع منه تصريحاً لان فيه مع اساءة الادب بنسبة القبيح الى الله تعالى مخالفة هدي الكتاب والسنة ونصوص الأئمة فقد ساق القرآن احتجاج الكفار بالمشيئة مساق التوبيخ والتفريع حيث قال (سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان اتمم الا تخرسون) وقد فر البضاوي وغيره الحرص هنا بالكذب ولو لم يكن في المسألة غير هذه الآية لكانت كافية في الردع عن الاحتجاج بالقدر كيف وهناك آيات كثيرة منها ما هو صريح في المعنى كقوله تعالى (واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا اذا اطعمنا من لوشاء الله اطعمه ان اتم الا في ضلال مبين) ومنها ما هو غير صريح . والاحاديث وآثار الصحابة واكابر السلف

من الأئمة المجتهدين وغيرهم في الأمر بالامساك عن الكلام في القدر والنهي
عن الحوض فيه لاتكاد تحصى

الاسلام دين الفطرة (اي الطبيعة والحليقة) فليس فيه شيء يخالف
الواقع الذي ثبت وجوداً أو يناهذ العقل الصحيح اخرج البخاري ومسلم
من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود
الا يولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة
بهيمة جمعاء (كاملة البدن) هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول (فطرة الله التي فطر
الناس عليها ذلك الدين القيم) . والفطرة تدلنا بالوجدان الذي هو اقوى
البراهين اننا نعمل باختيارنا والاختبار والاستقراء الصحيحان يثبتان لنا ان
سعادة الانسان في افراده ومجموعه نتيجة اعماله وان شقاءه من آثار كسبه
وانه متى استوفى الاسباب الطبيعية لامر من الامور بلغته وادركه وانه لا يخيب
امله ويحقق سعيه الا لاسباب اخرى تحول بين المبدء والغاية وانه قلما
تعاصي هذه الاسباب الحائلة عن قدرة الانسان وجاء الاسلام موافقاً
لفطرة فصرح كتابه الحكيم بقوله (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت
ايديكم) . وبقوله (وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم
يجزاه الجزاء الاوفى) وبقوله (من يعمل سوءاً يجز به) الآية والآيات
والاحاديث في هذا المعنى كثيرة واكثرها عام لاعمال الدنيا واعمال
الآخرة وأما قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من
سيئة فمن نفسك) وقوله تعالى (قل كل من عند الله) فلا ينافيان ما تقدم
لان الثاني بيان لان الله تعالى خالق كل شيء وقد جاء رداً على الذين
(ان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه

من عندك) وهم اليهود وكانوا يقولون ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ومعنى من عندك بشؤمك علينا ففي القرآن اعتقاد الشؤم وأثبت ان الاشياء اذا أضيفت الى غير اسبابها الظاهرة فلا تضاف الا الى خالق الاكوان الذي يرجع اليه الامر كله واما الاولى فمعناها ان جميع ما خلقه الله تعالى للانسان من الحسنات والنعم فهو فضل منه واحسان لا في مقابلة عبادتهم له لان العبادة لا تنفعه وعدمها لا يضره ومهما بلغ العبد من العبادة فلا يكافيء نعمة الوجود فكيف يقتضي غيره وان جميع ما يصديه من السيئات فهو من نفسه لان الله تعالى بين له اسبابها بما هداها اليه من سنن الكون واحكام الشرع التي تؤدب النفس وتقف بها عند حدود الاعتدال في الاعمال والمعاملات كلها فمن استرشد بسنن الكون ووقف عند حدود الشرع لا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكر الله المبين لها فان له معيشة ضنكا في هذه الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اشد وابقى . فهذه الآية كالتى صدرنا بها المقالة في بيان ان شقاء الانسان انما هو من نفسه بسوء اعماله وقبيح كسبه واعراضه عن هداية الله تعالى في الاعتبار بكتابه ومخليقته . واما آية (قل كل من عند الله) فهي مبينة للاعتماد بالله تعالى لا للاسباب والمسببات والكل حق لا يرتاب فيه عاقل وان لم يكن مسلما

اذا ظلمنا هذا فظلمنا ان نرجع على انفسنا بالتعنيف . وننجي عليها بالعدل والتوبيخ . ونطالبها بجميع ما نزل بنا من البلاء . وحل في امتنا من الارزاء . لا ان نمتب الاقدار . ونحيل على الاغيار . فان الله تعالى ما ظلمنا ولكن ظلمنا انفسنا . اليس قد هداانا النجدين وبين لنا السبيلين وجعل لنا السمع والابصار والافتدة لعلنا نشكره باستعمالها فيما خلقت له . لم يخبرنا

بان لهذا الكون سنناً لا تبدل ولا تتحول فلم نعرض عن مراعاتها ؟ الم نقرأ في كتابه (من عمل صالحاً فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) فعلام لانتمتع على انفسنا وتكفل بعد الثقة بالله على اعمالنا ؟ ألم يأمرنا بالسير في الارض والاعتبار باحوال الامم وهانحن أولاء نشاهد الامم النشيطة في الكسب العظيمة الهمة المعتمدة افرادها على انفسهم مع مراعاة نوااميس الخليقة قد سادوا على العالم واستخدموا الامم واستاثروا بالسلطان واصبح اضعف افرادهم اكبرهمة واعز نفساً من اعظم الامراء والملوك . انكتفي في مصائبنا الشخصية بمعادة اخواننا والعدوان على ابناء اوطاننا وفي مصائبنا القومية بمنز الذين سلبوا استقلالنا بالالقباب ونسبتهم للظلم والعشمة ونحن نعلم ان من سنن الكون استيلاء القوي على الضعيف وامتصاص الغني ثروة الفقير والاعتراض على نوااميس الخلق اعتراض على الحكيم العادل . وانتظار خرقها او تغييرها لا يصدر الا من اخرق او جاهل

سبحان الله - كلنا يجب ان يكون غنياً غير فقير وعزيزاً غير ذليل وسعيداً غير شقي . كل مصري يتألم من احتلال الاجانب لبلاده واستيلائهم على ينابيع الثروة والسيادة فيها حكماً وتجاراً حتي من يقول ان الاحتلال نفع ولا يزال نافعاً من بعض الوجود . كل شرقي يتململ من استعمار الغربيين لجزء كبير من الشرق وطموحهم لاستعمار باقيه فاذا كان غير المسلمين من الشرقيين يعذرتقاليده الدينية بالجهل وعداوة العقل والتشاؤم من علم الاجتماع البشري ومن الفنون الطبيعية التي تبين له طرق السيادة والسعادة فهل يصح للمسلمين ذلك والقرآن بين ايديهم يحذرهم وينذرهم ويستصرخ عقولهم ويمتنعدهمهم ويرشدهم الى سنن الخليقة ويبين لهم الطريقة ويلحق بهم

عار التقصير ويقول لهم (وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو
عن كثير)

(استنهاض همم)

(٢)

أما زعماء هذه النهضة والماملون عليها والقائمون على مجاري الاصلاح
فيها فهم ثلاث حاكم وعالم وذو فضلة من مال . اي امريء مسلم يمكنه ان يقتصد
شيئاً من نفقاته ويستبقى فضلة من ماله فيعده خيراً للمسلمين وفائدة لهم ودفع
الضرر عنهم وتعليم نسلهم واحداً منهم ولم يفعل كان آثماً ان لم يكن آثماً شرعياً
كان آثماً عقلياً سياسياً . كل عالم في طاقته وعظ العامة وارشادهم لما فيه خيرهم
وتعلمهم ما يجب عليهم وحشهم على الالفة وحسن المباشرة والتخلق بالاخلاق
الفاضلة والسعي وراء الكسب وترك البطالة أو تأليف الكتب وايداعها مسائل
العلم الحق الذي ينور الازهان ويرشد الى العمل ويبث روح النشاط في
الافراد او انشاء صحيفة سيرة يكتب فيها ما فيه فائدة للامة كحثها على بذل
المال في سبيل نجاحها واشراع مناهج الاصلاح لها وارشادها الى مابها
قوام وحدتها وحفظ جنسيتها وتحذيرها من مقاصد الطامعين فيها وتنبهها
الى الواجب لها وعليها . كل ذلك في طاقته ولم يفعل كان مجرمًا بغيضًا
ممقوتاً ان لم يكن من جانب الشرع (١) فمن قبل العقل والطبع . كل حاكم
يلى عملاً من أمور المسلمين فيسلبهم الامن ويأخذ عليهم الطريق في اعمالهم

(١) المنار - نقول هو ممقوت في نظر الشرع البتة فان الله تعالى أخذ ميثاق الذين اوتوا

الكتاب ليدينن للناس ولا يكتمنونه وفي الاحاديث وعيد شديد على كتمان العلم